طريق الحرير ١٩٩١

الطريق وسيلة وصل حضارية بين الشعوب

د. ساطع محلي
جامعة دمشق

الطريق شرط أساسي من شروط استمرار الحياة ، عليها يقضي المرء جزءا كبيرا من حياته ، وبوجودها يتقدم الانسان ويزدهر نشاطه ، وفي غيابها نكبة وعزلة قاتلة . وهي وسيلة طيبة للمعرفة والكشف ونقل البضائع والمتاع والافكار ، بواسطتها تمزج الثقافات ويتصل الانسان بالانسان في الاصقاع القريبة والبعيدة على سطح الارض . وهي ما زالت في عصر الفضاء ، بأشكالها ودرجاتها المختلفة ، لم تفقد أهميتها على مر الزمان . قطعها الناس مشيا على الاقدام وعلى ظهور الحيوانات ثم ، مع اختراع الدولاب ، بوسائط النقل المختلفة ، من العربة الى القطار الحديدي ، ثم بالسفينة والسيارة ..

وقد ازدهرت في تاريخ العالم طرق برية مهمة كانت تصل بين مناطق النشاط البشري القديمة أدت الى نشوء عدد كبير من المراكز العمرانية المستقرة كمحطات لقوافل المسافرين والبضائع في الاماكن التي كانت تتمتع بظروف طبيعية مناسبة يتوافر فيها الامن . وكانت هذه الطرق تتحاشى الاخطار وتتجنب مصاعب الطبيعة بوسائل مختلفة أهمها الانتقال من مكان الى مكان ، اذ لم تكن ، بمعظمها ، مقيدة بمسارات ثابتة على الارض الا في الامكنة التي لا يمكن التحول عنها ، كالخوانق الجبلية ومعابر الانهار . فهي في هذا المعنى حرة طليقة تسير حيث يسهل السير وتتوافر لها الحماية والطقس المناسب والماء والغذاء .

وأكثر الطرق شهرة في الماضي كانت تلك الطرق ذات الصفة الدولية ، أي التي وصلت بين الشعوب وانتقلت عليها ، بالاضافة الى البضائع ، الثقافات والافكار ، وعليها سارت قوافل التجار والمكتشفين والباحثين عن المعرفة والدعاة الى الدين قبل أن يستخدمها المحاربون والطامعون في ثروات الاخرين . وبذلك كانت طرق التجارة هي الاكثر مرونة لاستيعاب جميع النشاطات الانسانية تقريبا .

لقد تحدث الناس على طريق الكهرمان ، وهو نوع من الحجارة الكريمة خفيفة

(*) شارك د. ساطع محلي في بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » التي نفذتها منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى عام ١٩٩١ .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

الوزن زجاجية الشكل بنية اللون ، أصلها من تحجر صمغ الاشجار الصنوبرية الذي كانت تقذف بها أمواج بحر البلطيك على شواطىء القسم الشرقي من أوربا الشمالية. وتحدثوا على طريق القصدير الذي كان ينقل قصدير انكلترا الى البر الاوربي مارا بأودية أنهار الالبي والراين والسين والرون والدانوب ، وعلى طريق الملح والذهب ، الذي كان يعبر الصحراء الكبرى قادما من شواطىء البحر المتوسط قاصدا الى وسط القارة الافريقية والسودان . وهناك الطرقات الرومانية التي كانت تصل بين أجزاء الامبراطورية الرومانية المختلفة وتستخدم للتجارة أيضا ، وان كان الهدف الرئيسي من انشائها في الاساس السيطرة على المستعمرات وخدمة الاغراض العسكرية، ويقال بأن طولها بلغ في زمن تراجان ٨٠ الف كم ، ومنها أجزاء تشاهد حتى الان في أماكن كثيرة في القطر السوري بما يبدو من بقاياها المرصوفة بالحجارة الكبيرة وما بقي عليها من جسور وشواهد مادية أخرى .

ومثل هذه الطرقات عرفتها القارات الاخرى ومنها بلاد العالم الجديد ، ففي أمريكا الجنوبية اشتهر شعب الانكا بانشاء شبكة من الطرق التي تصل مناطق كثيرة في مرتفعات جبال الانديز بعاصمة دولة الانكا القديمة ، مدينة كوزكو . وهي الطرق التي استخدمها فيما بعد الاوربيون للتوغل في البلاد الحديثة والاستيلاء على الارض ونهب ثرواتها .

وقد انفرد من الطرق في التاريخ طريق رئيس وطرق فرعية عبرت اسيا من شرقها الى غربها ومن غربها الى شرقها ، وأتى ذكرها بأسماء مختلفة منذ ما قبل ميلاد السيد المسيح الى عصرنا الحاضر . لقد أخذت هذه الطرق اسماءها من غلبة هذا النوع أو ذاك من البضائع التي كانت تنقل عليها بوسائل النقل التقليدية المعروفة ، وهي الجمال والخيول والبغال . فهي طرق للشاي والتوابل والذهب والحجارة الكريمة، وبخاصة طرق للحرير ، وهي من جهة اخرى طرق التواصل الحضاري ونقل المعرفة، وفي الاوقات العصيبة طرق الجيوش أيام الحرب .

ومن الطرقات الاكثر شهرة في العالم القديم قبل الاسلام وبعده تلك التي كانت تنطلق من الجزيرة العربية في الشتاء والصيف الى البلاد المجاورة وتعود اليها ، وتسير عليها قوافل تتجه الى الجهات الاربع لاسيا واسيا الصغرى وأفريقيا ، في رحلات منظمة دخلت أخبارها في كتب التاريخ واشتهر منها ، غير ما اشتهر من أصناف التجارة ، أصناف من المقاصد النبيلة التي دخلت في باب التراث العربي الاسلامي خدمت الدين والمعرفة والعلم والادب .

مسار طريق الحرير : من خلال المواقع والمراكز البشرية عليه

لم يعد الاعتقاد القديم ساريا بوجود طريق واحد للحرير يصل بين الصين

والغرب، ظل محافظا على مساره طوال مئات السنين . والطرقات التجارية الاخرى التي كانت تسير عليها القوافل الى الجنوب والجنوب الغربي نحو بلاد فارس والهند والاناضول وشبه الجزيرة العربية لا يمكن اعتبارها منفصلة عنه .

ويرى أوليغ Uhlig (١) ان طريق الحرير بدأ أول ما بدأ في شرق آسيا من قانصو في « جبال السماء تيين شين » الى ما يسمى بمنطقة الغابات في المناطق الاسيوية الجنوبية من روسيا ، ومنها الى مصب نهر الدون ثم الى بحر أزوف ، ومن هناك يذهب فرع منه ليصل مناطق شمال آسيا بأوربا الشرقية والشمالية .

ويؤيد أوليغ القائلين باتجاهات ثلاثة رئيسة لطريق الحرير : الاول الذي يربط الصين بالهند وجنوب شرق آسيا ، والثاني الذي يربط الدول الاسيوية القديمة بأوربا (أو ما يعرف بطريق الحرير الشمالي أيضا) ، والثالث الاتجاه الذي عناه فرديناند فون ريشتهوفن(٢) ، وهو الطريق الجنوبي لعبور القوافل بين الصين وغرب آسيا الذي اشتهر باسم « طريق الحرير ».

وهذهالاتجاهات الرئيسة الثلاث التي تشكل المحاور الكبرى يتفرع عنها عدد من الطرق الفرعية التي خدمت خلال التاريخ الغرض نفسه ووردت في المصادر اليونانية والرومانية والعربية . والقرائن التي تدل على الصلة بينها وبين الاتجاهات الرئيسة المذكورة سابقا وجدت في عدد من المكتشفات الاثرية وأكدت على الصلات الوثيقة بينها وبين بلاد طريق الحرير ومنتجاتها الحضارية الثقافية والمادية . وأهم هذه الفروع للتاريخ العربي والاسلامي هو الفرع الذي يتجه نحو الجنوب الغربي قادما من بلاد « ما وراء النهر » وجنوبي بحر الخزر الى بلاد فارس والرافدين وبلادالشام.

يفترق هذا الفرع لطريق الحرير على جانبه الغربي في رأي أوليغ أيضا متجها الى مدينة مرو ويحاذي الشاطىء الجنوبي لبحر الخزر ويسير الى همذان ، في الشمال الغربي من ايران ، ثم يتفرع الى فرعين اثنين اخرين ، أحدهما يذهبالى سلوقيا باتجاه الخليج العربي بينما يتجه الفرع الاخر الاكثر أهمية نحو مدينة تدمر في بادية الشام التي كانت على الدوام مركزا تجاريا متقدما بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فيها تمر جميع البضائع تقريبا التي عرفها العالم القديم وليس بضائع طريق الحرير فقط ، وفيها يجري التبادل التجاري بين جميع المناطق الحضارية في منطقة اتصال القارات القديمة الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا . ويؤكد أوليغ على أهمية تدمر بقوله : « كانت تدمر نقطة التقاء الجميع وحافظت على غناها

---

(١) Uhlig, H. Dieseidenstrasse 1990.

(٢) Franz H. C., Diéseidentrasse 1987.

وازدهارها التجاري مئات السنين ، بل كانت أغنى وأجمل المدن المعروفة على طريق الحرير الغربي ، وهذا ما تؤيده الاثار العظيمة التي لا تزال حتى الان بادية فيها ... ومظاهر بناء مدينة تدمر تبدي الاهتمام بالجانب التجاري الرئيس فيها فوصفها بأنها مدينة الالهة عائد الى تلك الشوارع الضخمة ذات الاعمدة والاسواق الجميلة التي كانت ممتلئة بالبضائع المتجمعة فيها من جميع أنحاء العالم » ويقدر أوليغ المسافة التي كانت تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بمسيرة ست سنوات للذهاب والاياب . وهذه في رأيه مسافة قصيرة في ظروف ذلك الزمن لقرب تدمر من مراكز التجارة الاخرى في جنوب الاناضول والبحر المتوسط والبتراء والبحر الاحمر فيالطريق الى الاسكندرية . وهذه الاخيرة لم تكن أهميتها التجارية بالنسبة للبضائع الثمينة تقل عن مدينة روما .

ومهما يكن من أمر فان تحديد مسار طريق الحرير الدقيق مع فروعه كان صعبا ولا يزال كذلك لاسباب كثيرة منها القطيعة الطويلة التي سببتها حدود صعبة العبور خلفتها التطورات السياسية خلال العقود الاخيرة وخاصة وجود كتل كبيرة ثلاثيمر فيها الجزء الاكبر من طريق الحرير مثل الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي ودول أوروبا والبلاد الاخرى في غربي اسيا وجنوبها الاوسط . ومنها اختلاف اسماء المراكز العمرانية والمواقع التي وردت في تراث الدول التي مر بها طريق الحرير عن الاسماء المستخدمة أو المعروفة حاليا نتيجة لاسباب كثيرة منها التحريف الذي لحق بها ومنها الاخطاء التي حصلت في النسخ والطبع ، ونتيجة للترجمة والقراءات المختلفة للاسماء الواردة في لغات متعددة . ومعرفة المراكز العمرانية والمواقع ضروريةجدا لتحديد مسار طريق الحرير لانها في الواقع نقاط مهمة وعلامات لابد من اعتمادها لتحديد مسار أي طريق في الماضي وخاصة في أوقات لم تستخدم فيها في انشاء الطرقات مادة مقاومة للطبيعة تبقي على المسارات واضحة على الارض الواسعة التي تخضع لعواملالطبيعة غير المناسبة لبقائها ، ولعوامل بشرية واقتصادية كثيرة أدت الى اندثارها عن عمد أو عن غير قصد .

وهناك نقطة اخرى تجعل من الصعب تحديد الطريق تحديدا تاما ، وهي الدمار الذي أصاب بعض المراكز العمرانية التي كانت ، في الماضي محطات للقوافل، وجعلها تختفي نهائيا من الواقع . ولذلك لابد من التأكد من مواقعها عن طريق دراسة ميدانية علمية دقيقة تشترك فيها أساليب التنقيب والاكتشاف لتحديد الصورة الصحيحة للمواقع في سبيل التوصل لمعرفة الواقع في الماضي .

فكثيرا من المواقعالقديمة اختفت اسماؤها الحقيقية بشكل أو بأخر على الرغم من وجود آثار لمواقعها . والخطأ يحصل عند الدراسة لاسماءلاحقة بعيدة عن الاسماء

الحقيقية لها ، فهي اما أسماء أعطيت لها وهي في الواقع مجاورة أو أنها اسماءتداولها السكان في أمكنة مجاورة أو ألقاب أطلقها عليها آخرون أخذوها من الطبيعة المحيطة بها ونسبوها الى أسماء وضعوها هم . . الخ . وبذلك ضاعت الاسماء الحقيقية مع الزمن ولهذا يقترح وولغرام ايبرهارد W. Eberhardt الذي صدرت له موضوعات كثيرة حول الصين وشعوب آسيا الوسطى ، أن يحل الخلاف على صحة الاسماء القديمة للمواقع والمعامر بالاعتماد على الحفريات والتنقيب والاستدلال على مواقع المراكز المندثرة بالقرائن الموجودة في الارض مثل الحجارة والوثائق والنقوش والمخلفات المادية المختلفة . فهذه المكتشفات تعطي معلومات كثيرة عن صحة المواقع وأدوارها وعلاقاتها بمواضيع الدراسة وتحديد الطرقات والمظاهر البشرية والاقتصادية التي كانت سائدة أثناء حياتها .

وقضيةالتنقيب والاستكشاف هذه لمعرفة مسار طريق الحرير والنشاطات الانسانية التي رافقته طوال العصور الماضية كانت مطلبا لعدد كبير من العلماءالمشتركين في بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ » وكان من التوصيات الهامة الاولى التي وجهت الى منظمة اليونسكو مديد المساعدة على كشف المواقع الاثرية المندثرة أو التي أصابها الضرر في جميع أراضي آسيا الوسطى ، وانشاء معهد للبحث العلمي ومراكز دراسة متخصصة في آسيا الوسطى لهذا الغرض ، وجمع جميع ما كتب عن طريق الحرير وحضارات الشعوب التي لها علاقة به في جميع البلاد وجميع اللغات ومتابعة البحث لاستكمال المعلومات الصحيحة حول طريق الحرير منذ نشأته وحتى الان .

طريق الحرير والشروط الجغرافية

آ ـ المحاور الرئيسة والمحاور الفرعية : طريق الحرير اذن طريق تجاري رئيس بين مراكز حضارية مهمة في قارات العالم القديم ، أوربا وآسيا ، وتتفرع عنهطرقات الفرعية ظروف التطور التاريخي لشعوب المناطق التي تمر بها ، وبخاصة الشروط فرعية متشعبة تذهب في جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتحكم في مساره الرئيس وطرقاته الطبيعية ، فتؤدي الى تعطل الحركة عليها أو تعمل على تحويل اتجاهاتها للمحافظة على استمرار عملها . الا أن الاتجاه الرئيسي فيه محور يتجه في البر من سورية ، الدولة الاكثر نشاطا ، والتي تمتلك مفرق الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . ففيها دمشق ، المنفذ الرئيس الى بلاد الحجاز والى مصر ، وانطاكية التي تسلم بضائع آسيا الى مراكب البحر المتوسط لتنقلها الى برينديزي والبندقية وجنوه ومن ثم ، عبر الطرق البرية الاوربية ، الى مدينة قادش علىالمحيط الاطلسي ، وفيها تدمر التي تتجه بأبوابها الشرقية الى بلاد الرافدين لتسلم البضائع

الى ثلاث طرق تجارية للحرير فيها تأكد من وجودها المنقب الانكليزي سمبسون(*) . ومن بلاد الرافدين يتجه الطريق الى ايران وافغانستان والباكستان للاتصال بالمحور الاساسي في آسيا الوسطى .

في آسيا الوسطى يمكن أيضا أن نلمح مسارين رئيسين متوازيين يتجهان من الشرق ليلتقيان في الاناضول في الغرب ويخرج منهما فرع الى سيبريا الغربية وجبال الاورال . يمر المحور الرئيس الشمالي بعدد كبير من المدن الكبيرة التي ازدهرت في الماضي ولا تزال مزدهرة في الحاضر ، وبمدن اخرى ومراكز حضرية أو بدوية كانت عامرة وانقلبت مع تحول وظيفة الطريق وانقطاعة الى خرائب ومواقع أثرية تحظى الان باهتمام عدد كبير من المؤسسات العالمية في دول اسيا الوسطى والعالم .

يمر المحور الشمالي في رأي العديد من الباحثين بمدينة سمرقند (قديما افراسياب التي خربها جنكيز) ومدينة تاشكند بعد أن يقطع نهر سرداريا ويمربمدينة انديجان شمال مدينة قوش ويتابع سيره ليمر جنوب بحيرة ايسيكول والى قوتشا وكورلا وطرفان وهامي في الشرق باتجاه الاراضي الصينية جنوب منغوليا ، أي أن هذا المحور يسير في المناطق السهلية وسفوح جبال آسيا الوسطى (جبال تيبن شين الوسطى الشمالية) محاديا مناطق صحارى آسيا الوسطى . ويضطر الى عبور عدد من الاودية الواسعة (مثل وادي فرغانا) والمعابر الجبلية السهلة مستفيدا من المصادر المائية المهمة التيتأتي من الجبال فتوفر للعابرين مياه الشرب والاستعمالات المختلفة بالاضافة الى المصادر الغذائية التي يوفرها الرعاة مربو الاغنام والخيول ، وتوافر الجمال التي كانت ، مع الخيول ، وسائط نقل هامة في المناطق الجافة وشبه الجافة التي يمر بها طريق الحرير .

والمحور الغربي – شرقي الموازي الاخر يمر في آسيا الوسطى على السفوح الجنوبية لجبال آلاي وتيين شين وأوديتها المتطاولة وعابرها شمال جبال البامير الشاهقة متجنبا القمم والمرتفعات (يصل ارتفاعها الى ٧٤٩٥م) . ويتجه الى الشرق من مدينة كاشغر الى الاطراف الجنوبية من حوض تاريم الجاف مار بمدن جرقند وخوتان وتشيرشيك شمال جبال كون لون متجها الى تونهوانغ بالصين ليلتقي بالمحور الشمالي الآخر الذي أتينا على ذكره . ويلتقي هذان المحوران الرئيسان بطرق موازية أخرى تصل بينهما مثل الطريق المار بكاشغر نحو الشمال الشرقي الى مدينة أكسو

(*) في وثيقة علمية قدمها في احدى ندوات « بعثة طريق الحرير ١٩٩١ » في اسيا الوسطى .
وقد سبق لسميسون أن عمل في القطر العربي السوري في تل النبي مند .

شمال نهر تاريم ، أو الطريق الذي يمر بالقسم الشمالي من أفغانستان شمال جبال هندوكوش فيعبر بلخ وقندس وشمال كشمير وجنوب جبال البامير باتجاه مدينة كاشغر .

هذه المحاور الرئيسة اختارت في آسيا الوسطى المسارات المضمونة ذات المناخ الملائم لسيرها معظم أيام السنة متجنبة الاراضي الجبلية ذات البرد القارس المكسوة بالثلوج ، كما تجنبت الصحارى الجافة عن طريق اختيارها للمناطق التي يضمن حكامها سلامة القوافل أثناء عبورها . وسيان لهذه الطرق ان مرت بالحواضر الزراعية والتجارية أو بالمناطق الرعوية ، فكلا الشكلين من المواقع قاما بدور المنظم الحامي لطريق الحرير خلال تاريخه الطويل* .

ب ـ طريق الحرير ـ طريق السهب :

يبدو أن الطبيعة لعبت الدور الاساسي الاول في تحديد مسار طريق الحرير في وسط آسيا . ولكن تظل الشروط الجغرافية الاخرى هي العوامل الاولى في ذلك التطور التاريخي الهام ، وعاملا الامن والسلامة في مقدمتها .

والشروط الطبيعية يمكن تخيصها بشرطين اثنين . أولها طبيعة الارض وتوزع الجبال والوديان والسهول في آسيا الوسطى . وثانيهما المناخ والطقس وتوزع المياه والمصادر النباتية وما يتبع ذلك من نتائج تنعكس ايجابا أو سلبا على النشاط البشري،

---

* كان هذا موضوع الندوة العلمية الاولى في بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ » في مدينة خيوه بآسيا الوسطى بين ٢ ـ ٣ أيار ١٩٩١ بعنوان « أهمية محطات القوافل والمدن على طريق الحرير الشمالي » ، وموضوع الندوة العلمية الثانية للبعثة في مدينة ألما ـ آتا بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٩١ التي ركزت على العلاقات المشتركة بين المراكز الحضرية والرعوية على طريق الحرير . فالمراكز الحضرية والمراكز الرعوية قدمت في اسيا منجزات ثقافية ناضجة متقدمة في ميادين الفكر والفن ، والثقافة بعامة بين جميع المدن والواحات ومحطات القوافل والمراكز التي ثبتت علي الارض ردحا كافيا أتاح المجال لظهور نشاطات ثقافية كنت تختص بها المدن عادة .

قدم في ندوة ألما ـ آتا العلمية ٢٧ موضوعا ركزت أفكارها حول رفض الفكرة السائدة عن الدور الضئيل الذي كانت تلعبه الشعوب الرعوية في المنجزات العالمية . ودافع عدد من المتحدثين عن الدور الايجابي للشعوب الرعوية خاصة السيد سمبسون الذي اعتبر أن طريق الحرير كان بمثابة المعبر لشعوب كثيرة . منها البدوية ، حملت الحضارة الى المناطق التي زارتها ونزلت بها . فالبدو كانوا ناقلي حضارة عالمية لا تعترف بالحدود على الكرة الارضية ، كذلك فعلت مصر وبلاد الرافدين ودول الشرق الادنى التي انتشرت فيها طرق القوافل ، ومنها الطريق بين خوارزم وسيبيريا الغربية والبلطيك . كما أكدت المؤرخة الروسية السيدة ليفيا على العلاقات الطيبة التي كانت للشعوب الاسيوية البدوية مع المستقرين في مناطق العبور وأيدها الاستاذ بورياكوف من المعهد الاثاري في مدينة سمرقند باعتقاده بوجود نظام كبير متوازن مترابط بين البدو والمستقرين .

وبصورة خاصة ما يتعلق بالزراعة والتجارة ونشوء المراكز المستقرة . ومنعكساتها على جميع أنواع النشاط الاخرى ، السلمية وغير السلمية .

لقد أدى تحرك الصفيحتين ، الاسيوية الجنوبية الهندية ـ الايرانية ـ الافغانية من جهة ، والروسية ـ السيبيرية الشمالية من جهة أخرى ، أثناء حدوث ما يسمى بالالتواءات الالبية الهملائية في الحقب الجيولوجي الثالث الى ظهور معقد جبلي التوائي مرتفع (وسطي ارتفاعه ٤٠٠٠م فوق سطح البحر) في الوسط في مناطق بامير والتائي والهمالايا وقره قوروم وهندوكوش وكون لون وتيين شين . وهذه الجبال المرتفعة شكلت بسبب ارتفاعها الشديد وغطاء قممها الثلجي طوال أيام السنة تقريبا عقبة أمام المواصلات بين الجنوب والشمال ، باستثناء ممرات جبلية قليلة عبر أودية ضيقة ليس من السهل الاحتفاظ بصلاحيتها للعبور دائما . وساعدت في ذلك بقاع سهلية في الجبال صغيرة المساحة صالحة للزراعة تستطيع تقديم الشروط الضرورية للمزروعات الغذائية . كما ساعدت على الانتقال المجاري الاولى لأعظم وأكبر الانهار في آسيا الوسطى التي تتجه نحو الشمال مثل المجاري العليا لنهري سرداريا وأموداريا (سيحون وجيحون) وروافدهما . وكذلك فعلت في اتجاهات أخرى حين عبرت مجاريها الدنيا مناطق سهلية منخفضة نسبيا قليلة الامطار يشرف عليها من علو « سقف العالم القديم » ، من أمثلتها صحارى قره قوم وقوزول قوم وتاكلاماكان وغوبي . فكان لزاما على « طريق الحرير » مسايرة تضاريس آسيا الوسطى والبحث عن أقل المعابر الجبلية مشقة وأكثر الاماكن سهولة وأمانا . وهذه الشروط كانت تقدمها أطراف الجبال وهوامش الصحارى الايرانية الطورانية والاراضي المنخفضة حول بحر آرال وبحيرة بالخاش .

ومن الامور المهمة التي أثرت في مسارات طريق الحرير واستمراريتها الشروط المائية . فمعظم الامطار التي تتأثر بها آسيا الوسطى تأتي من مصدرين بحريين هامين في الغرب هما : المحيط الاطلسي والبحر المتوسط . في حين تحجب سلاسل هندوكوش وقارا قوروم وهملايا ، الامطار الموسمية الجنوبية . وتلج الرياح الشمالية الى سفوح جبال تيين شين لتسهم في اعطائها غطائها النباتي الاخضر ، في حين تندر الامطار في المناطق الداخلية المنخفضة المؤطرة بالجبال مثل حوض تاريم الواسع (زهاء ٤٠٠كم٢) الذي تعزله جبال تيين شين في الشمال وبامير في الغرب وقره قوروم وكون لون والتون داغ في الجنوب ، وتصل الى ارتفاعات شاهقة تتراوح بين ٧٠٠٠ـ٨٠٠٠م وتترك بينها أكثر صحارى آسيا الوسطى جفافا وهي صحراء تاكلاماكان ، التي لا تصل الامطار السنوية في غربها الى أكثر من ٦٥ مم في مدينة كاشغار مثلا ، والى ٩ ـ ١١ مم في الشرق في المنطقة المحيطة بـ « لوب نور » .

وترتفع الحرارة في الصيف في واحة طرفان في أكثر المناطق انخفاضا (ـ ١٥٤م) الى ٤٧° درجة مئوية .

وهذه الظروف المناخية الشديدة التطرف تجعل السير صعبا في جو جاف ينتشر فيه الغبار وتقل المياه ، بينما تشتد الرياح المغبرة الرملية الناشئة عن التفاوت الحراري بين قمم الجبال المحيطة المغطاة بالثلوج والمنخفضات البالغة الحرارة . ومع ذلك لم يتقاعس تجار طريق الحرير عن انشاء المدن على أطراف الصحراء المذكورة الشمالية والجنوبية لتكون مراكز راحة وتموين بالماء والغذاء .

أما في الاودية والمعابر المرتفعة التي كانت تمر بها طرق الحرير الرئيسة والفرعية فكانت الظروف المائية أحسن حالا ، اذ كان الماء يتوافر في المجاري العليا للانهار التي يغذيها ذوبان الثلوج على الجبال المرتفعة ، وعشب الماشية والغذاء توفره السهول الخصبة على ضيقها في سفوح الجبال وبخاصة الشمالية ، بالاضافة الى الواحات التي كانت تعتمد على ري الانهار والاقنية الصنعية التي برع بها سكان آسيا على غرار ما كان يجري في بادية الشام في استنباط الماء الباطني وجره الى سطح الارض بطريقة ذكية .

ويعجب المرء حقا بالجهود التي بذلها في الماضي أناس استطاعوا ، على فقرهم وعدم امتلاكهم الادوات اللازمة للتعامل مع الارض الخشنة ، لحفر أقنية باطنية تحت الارض (كهاريز) ينفذ اليها من سطح الارض بفتحات شبيهة بفتحات الابار استعملت للحفر وتستخدم لصيانة القنوات وتوسيعها ، كانت تجمع المياه الباطنية من أماكن وجودها في ذيول المرتفعات الى الاماكن الاكثر انخفاضا في دهاليز تحت الارض محمية من التبخر والتلوث ، لتخرج الى سطح الارض مشكلة سواقي جارية تروي ظمأ المحتاجين وتسقي بساتين الخضار والفاكهة (بلغ عددها في واحة طرفان ١٢٠٠ وبلغ طول الواحدة منها بين ١ و ١٠ كم) .

هذا النوع من الاقنية الباطنية (الفجارات في شمال افريقيا) استمرت في الحاضر في شكل عدد كبير من أقنية الري الحديثة الكبيرة والصغيرة في آسيا الوسطى تنقل الى مساحات واسعة من المناطق الداخلية الجافة مياه الانهار الكبيرة مثل سرداريا وموردايا ، ومياه كثير من البحيرات الداخلية العذبة المتخلفة عن الامطار وذوبان الثلوج ، بالاضافة الى استنباط الماء الباطني بالمضخات (هنا تذكر قناة قره‌قوم وفروعها التي يبلغ طولها زهاء ١١٠٠ كم التي يطمح لايصالها الى بحر الخزر) .

هذه الطريقة في استنباط الماء الباطني واسالته على سطح الارض في سواق مكشوفة تجري فيها مياه عذبة تحمل الحياة والخير للانسان والحيوان والنبات عرفتها في القطر السوري منطقة الغوطة في دمشق ومنطقة القلمون ومناطق أخرى كثيرة في

أطراف البادية السورية . والتقنية المستخدمة فيها هي نفسها في آسيا الوسطى لان الظروف الطبيعية السائدة هي نفسها . وهذا لا يمنع من قبول التفسير الذي يؤكد وجود صلة بين زراع البلاد المختلفة في العروض المختلفة نتيجة للاتصال التاريخي القديم بين الجماعات وتبادل الخبرات خلال حقبات طويلة ، عن طريق الرحلات والانتقال الكبير بين أقطار المشرق القريب والبعيد .

ولعل من الشروط الهدرولوجية الايجابية لمنطقةآسيا الوسطى وجود بحيرة آرال في بقعة واسعة ارتخائية منخفضة من الارض تحتلها رسوبات لحقية رباعية تحتفظ بصورة جيدة بالمياه القادمة اليها من محيطها الغني بالمياه وخاصة من مياه نهري أموداريا وسرداريا ، أي النهرين اللذين استحوذا على اهتمام القدماء منذ عصر اليونانين تحت اسم أراكس Araxs وأكسوس Axus بسبب غزارتهما بالماء واستطاعتهما عبور مناطق شاسعة في مجار متحولة مترنحة كانت تتغير اتجاهاتها على الدوام فتؤثر من قريب أو بعيد على مناطق استقرار البشر وتجوالهم وهذا يفسر أيضا خراب عدد كبير من المراكز العمرانية التي ترى آثارها الان في مناطق بعيدة عن مجاري المياه ، وابتعاد مجاري الماء عنها هو السبب الرئيس في خرابها ، من بين أسباب أخرى منها عدم استقرار الامن وتحول طرق التجارة عنها .

وقد تحققنا من ذلك في رحلة خاصة بثلاث طائرات هيلوكوبتر حلقت فوق « سهب الجوع » باتجاه مدينة أبحاث الفضاء السوفيتية لينينسكي في موقع بايكانور بصحراء قزقستان ومراقبة الارض من الجو ، والهبوط في عدد من التلال الاثرية التي أجريت فيها تنقيبات أيدت بشكل أكيد بما عثر فيها من أدوات وبقايا بشرية وحيوانية نشوء مراكز عمرانية كثيرة محصنة في المناطق الغربية من سرداريا وأموداريا اللذين كانا يشقان طريقهما نحو بحر الخزر في العصور الغابرة قبل أن يتحولا نحو بحيرة آرال.

ومن البقايا التي عثر عليها هناك عدد من الآنية والحلي تدل على بقايا اسلامية تلقب في لغة المنقبين الاجانب بالتركية وفيها كسرات آنية مصنوعة من الزجاج السوري.

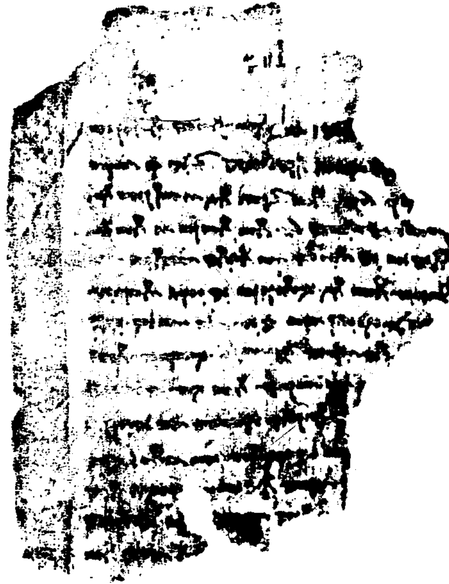
طريق الحرير في آراء علماء آسيا الوسطى
والعلاقة الوثقى بين شرق آسيا وغربها

نال « طريق الحرير » في نفوس المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب تقديرا خاصا لدوره في كشف البلاد البعيدة ونشر العقيدة واستقصاء المعارف وتبادل البضائع . وهذه غاية أشار اليها ابن خرداذبة في كتابه « المسالك والممالك » حين عدد ما كان يحمله التجار القادمون من الصين والهند من مسك وعود وكافور وذهب وحرير وبخور وقرنفل وحجارة كريمة ، في قوافل كانت في « مروج الذهب » للمسعودي

« متصلة من السند الى خراسان وكذلك الى الهند » ، وخاصة ما ارتصف على هذا الطريق من مراكز العمران الكبيرة الجميلة التي وصفها الادريسي بحماس في « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » في مثال مدينة بخارى التي « تزهى على المحاسن نظرا فرجة الارجاء والجهات كثيرة الاشجار والثمرات » ، وسمرقند « حسنة كبيرة على جنوب وادي السند فيها شوارع ومجالات وقصور سامية وفنادق وحمامات وخانات» وأيده في ذلك ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » : « وهي مدينة فيها أسواق كبار وفيها ما في المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن » .

وفي السنتين الماضيتين حظي طريق الحرير بعناية عدد كبير من العلماء فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وخاصة في معاهد البحث العلمي والجامعات وأكاديميات العلوم ، في جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية قبل وأثناء التحضير لبعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » التي نظمتها اليونسكو لعام ١٩٩٠ و ١٩٩١ ، ودفعتهم الى التجاوب مع هذه المنطقة الثقافية الدولية في الهدف المعلن من قبلها ـ وهو الحوار بين الشعوب ـ السياسية الانفتاحية للدولة تجاه العالم ، وبخاصة الدول الغربية ، وجعلت العديد من علماء آسيا الوسطى يشتركون بحماس في تأييد الدور السلمي العالمي الذي كان لطريق الحرير في الماضي كصلة وصل بين الشعوب وما يمكن أن تسهم اللقاءات العالمية حول طريق الحرير في المستقبل في ترسيخ سياسة الوفاق الدولي وفتح ما كان منغلقا على العالم في آسيا أمام جميع الراغبين فيه .

والى « طريق الحرير » يعيد العالم سعدوليف A.S.Sagdulaev ازدهار النقل والتجارة وتجارة الترانزيت محليا ودوليا منذ القرن الثاني ق.م. وخاصة في باكتريا ومارغيانا والصغد ـ أي منذ بدأت حملات الاسكندر الاكبر ـ الى آسيا الوسطى ، ويركز بصورة خاصة على انتشار الافكار الروحانية ومظاهر الحضارات من بلاد فارس وبلاد الرافدين وبلاد آسيا الصغرى باتجاه آسيا الوسطى . وتذكّر السيدة مالكيفا Malkeeva بأثر الشعراء والحجاج من الاديان المختلفة ، بالاضافة الى الرحالة والتجار ، في نشر الثقافة بما في ذلك الموسيقى والغناء ، وتلك حقيقة يلاحظها المرء في التشابه بين الالات الموسيقية الوترية والمزامير المستخدمة في الهند وتركستان وآسيا الغربية (مثل آلة الدنبرة المستخدمة في آسيا الوسطى القريبة من البزق) . وكذلك يفعل شفيقياكوف A.I Schevyakov في تلمس التشابه الكبير في تراث وفولكلور شعوب المناطق ، وخاصة في القصص الشعبي والخرافات .



كتابة كنسية بالخط السرياني القديم (اسطرنجيلي) عثر عليها في حوض تاريم
(متحف باليم في برلين)

وتدل بقايا النقود التي عثر عليها في بكتريا والصغد وخوارزم وغيرها على تشابه كبير فيما بينها يؤكد انتشار استعمالها في التجارة الرائجة آنذاك ثمنا للمواد الاساسية التي كان يرغب الناس في شرائها ومنها بشكل خاص الذهب والفضة والمرايا والبرونز والزجاج . وهذه المواد عثر عليها في أماكن كثيرة وواسعة جرى فيها التنقيب كما تقول السيدة بوغا شينكوفا G.A. Bugachenkova من بينها الزجاج السوري الذي وجد في التلال الاثرية في مناطق دلتات نهري سرداريا وأموريا (سيحون وجيحون) جنوب بحر آرال جنبا الى جنب قريبا من هياكل عظمية تعود الى فرسان قادمين من الغرب من تركيا* .

وثمة مظاهر أخرى في آسيا الوسطى تكاد تكون مألوفة تماما في الوطن العربي ، تظهر في التشابه الكبير في عادات الشعوب وتقاليدهما في الحياة اليومية ومواقفهما المشتركة بعضهما تجاه البعض الاخر وتجاه الشعوب المجاورة والقريبة . فالعقيدة

* والبلاد التركية بالنسبة للباحثين هناك هي البلاد الاسلامية الواقعة في الغرب والجنوب الغربي، وتعبير الثقافة التركية يعني الثقافة الاسلامية بغض النظر عن مصادرها الاصلية ، فهي ان أتت من الغرب في الكتابات الاجنبية (ومنها الروسية) تركية ولو كان مصدرها من بلاد الرافدين أو شبه الجزيرة العربية.

الاسلامية تجمع بين معظم الشعوب التي تسكن في المناطق المتاخمة لطريق الحرير . في هذه المناطق تقدس الحياة الاسرية وتتمتع المرأة بمكانة خاصة فهي دائما في الحياة العامة وراء الرجل ، ولكنها رئيسة للاسرة في جميع شؤونها البيتية الداخلية ، عليها واجب رعايتها وتنظيم البيت والقيام بالاعمال الكثيرة المطلوبة منها ، مع انصراف الرجل الى العمل خارجا للقيام بجميع الواجبات المالية تجاه أسرته .

ومن النشاطات المعتادة تنقل الرعاة وراء أغنامهم وخيولهم في المراعي التي يترددون عليها في نجعة تقليدية فيهاجرون مع حيواناتهم صيفا الى الاراضي المرتفعة والجبال ويعودون بها الى الاراضي المنخفضة شتاء ، تلازمهم وتخدم نشاطاتهم الخيام المصنوعة من اللباد (الصوف) الملون ، بالاضافة الى صناعة السجاد والمنسوجات اليدوية ذات الالوان الزاهية والملابس المزركشة ، وأغطية الرأس التي تستخدم في البيت والعمل وخاصة في الاحتفالات العامة .

والنشاطات اليومية متماثلة أيضا في جميع أنحاء آسيا الوسطى وهي قريبة من عادات الاجزاء الاخرى من آسيا ، من التعامل مع الجيران والاقارب وفقا للعادات القبلية والعصبية البدوية الى طريقة تنظيم الافراح والاتراح وتناول الاشربة والاطعمة .

ومما يذكر بالحياة البدوية المألوفة في الوطن العربي تشابه الاطعمة المعروفة والعادات المتعلقة بها واشتراك جميع جمهوريات آسيا الوسطى بها تقريبا في قزقستان أو قرغيزيا أو طاجيكستان أو أوزبكستان . هنا ينتشر لحم الغنم ، ولحم الحصان ، والحليب ومشتقاته ، وفي المقام الاول حليب الحصان أو ما يسمى هناك « الخمس » جنبا الى جنب مع أنواع الخبز المهيأة محليا وبأشكال مختلفة منها المالح والحلو ، وانواع الاطعمة المصنوعة من الحبوب والخضار الغضة والمجففة والكثير من أصناف الطعام الاخرى .

ومهنة الرعي مهنة رئيسة في بلاد آسيا الوسطى على طريق الحرير . والتقاليد البدوية تبدو في معظم المظاهر العامة وتحكم التعامل داخل البيت وخارجه . وحب الفروسية والحفاظ على مظاهرها من الامور المقدسة ، والحصان ، كأداة للنقل وخاصة الركوب وكمادة يفتخر بها ، من المشاهد المألوفة في آسيا الوسطى أمام البيوت وفي الطرقات والمراعي . وقد يطغى منظره على قطعان الاغنام والاصناف الاخرى من السوائم . والحصان في آسيا الوسطى لا يزال يحافظ على منزلته العالية ويرافق جميع الفعاليات اليومية ويرد ذكره في جميع المناسبات تقريبا ويرافق الرجال في تجوالهم في الارياف والمدن يتباهى به المرء في الطرقات ويسود قطعان كبيرة على المروج يتحرك عليها بحرية كاملة يعنى مقتنوه بصفاء أصوله وعلو نسبه . ولبنه يفضل على جميع

الاشربة الاخرى ويرافق الشاي في الافطار والغداء والعشاء في البيوت والخيام ، في الحياة اليومية وفي المناسبات السعيدة والتعيسة .

وخيمة « اليورتا » في لغة القزق و « بوزوي » بلغة القرغيز لها في نفوس أهل آسيا الوسطى ما لخيمة البدو وبيت الشعر في بلادنا ، فهي المنزل المحبب الذي يحمله الرعاة معهم في البراري ويستخدمونه بسهولة ويسر ، ينصبونها في ربع ساعة ونيف وبها يصدون جميع عوامل الحر والبرد . وهي الان في تقالية الشعوب هناك المنزل المفضل لدى الباحثين عن الراحة والاستجمام من أهل المدن يقضون فيها ــ في أمكنة منتقاة في الارياف ــ العطل والاجازات . فهي مرنة جميلة يتباهى مستعملوها باقتنائها وامتلاك جميع الادوات الاخرى المرتبطة بها التي تساعد على تحقيق جميع الاحتياجات المطلوبة لاستراحة تطول أو تقصر في مناطق ليست أمكنة استقرار ثابت .

وخيمة « اليورتا » حجرة دائرية الشكل مصنوعة من اللباد الصوفي الملون على الغالب الذي يغلف هيكلا من أعواد الخشب تستند عليه جدران الخيمة وتستمر في السقف لتنتهي بفتحة علوية ارتفاعها زهاء ثلاثة أمتار للتهوية تفتح وتغلق حسب الحاجة كالاطراف السفلية من الجدران . والفسحة الداخلية التي يدخل اليها المرء من باب صغير خشبي على الغالب تتسع لاسرة من بضعة أشخاص تفرش أرضها بأصناف البسط والسجاد كالجدران الداخلية المستورة بأنواع زاهية الالوان من البسط المزركشة والسجاد الصوفي وجميع الانواع الثمينة من المقتنيات الاسرية التي يفاخر رب الخيمة بها مثل الفراء والوسائد للنوم وجلوس الضيوف وفرش النوم وصندوق الخشب والصور وعدة الشاي والطعام وخاصة (السماور) للشاي وزبادي القيشاني التي تستعمل لشرب الشاي وشرب لبن الخيل . وفي ركن من الاركان تبرز فيها المقتنيات المذكورة تعلق الآلة الموسيقية الوترية الرشيقة المسماة « الدنبرة » عند القزق و « القمز » عند القرغيز* ، رفيقة المغنين والمغنيات من أفراد الاسرة أو من المهتمين من الاقارب والاصدقاء وأبناء العشيرة تداعبها الانامل في ولائم اليورتا أثناء تناول الطعام على الارض أو حول المائدة المنخفضة العامرة بأنواع الطعام المحضر بالطريقة البدوية المعروفة ، وصنفه الرئيس هو اللحم الذي يطبخ خارج الخيمة في قدور كبيرة على مواقد يستخدم فيها الحطب . والمضيف ينتصب في جانب من الخيمة ليقوم بواجب الضيافة بالحث على الطعام وتناول الشاي وحليب الخيل من يدي زوجته ، أو ابنته الكبرى ، التي تبقى واقفة طوال الوقت تتفانى في الخدمة وفقا لعادات دقيقة حتى الانتهاء من الطعام ، بوقوف الضيوف ومغادرة الخيمة بالسلام « رحمة » .

---

* آلة بثلاثة أوتار صندوقها صغير وعنقها طويل دقيق تصاحب جميع أصناف الغناء الشعبي تقريبا ، ويمكن استخدامها مع آلات موسيقية أخرى مشابهة .

طريق الحرير ـ طريق الحوار في برامج اليونسكو

طوى النسيان سيرة طريق الحرير الجميلة بعد الدمار الذي حدث على يد قادمين من وسط آسيا وشرقها قطعوا الرؤوس وحرقوا الكتب وألقوها في الانهار . لكن ردة الى الماضي التراثي حدثت في السنوات القليلة الماضية أعادت الى طريق الحرير شيئا من اعتباره ، وأخذ التلفاز في دول العالم المختلفة يعرض سلسلة من الافلام الوثائقية الشائقة لطريق الحرير صورها فريق علمي ياباني طاف مناطق واسعة في الصين وآسيا الوسطى والغربية ، ووضعت منظمة اليونسكو في برامجها الثقافية لأواخر الثمانينات ولأوائل التسعينات مشروعات ثقافية جليلة الاهمية حول طريق طريق الحرير نفذ بعضها وما زال البعض الاخر قيد التنفيذ ، ومنها تلك البعثات العلمية على طريق الحرير ، أي بعثة طريق الحرير في الصين ، وبعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ ، وبعثة طريق الحرير البرية عام ١٩٩١ ، والرحلة الثالثة التي ستنفذ في العام ١٩٩٢ نحو طرق الحرير عبر سيبيريا الغربية وجبال الاورال .

١ ـ بعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ :

تحديد الطريق أو الاصح الطرق البحرية أقل صعوبة على الدارس، كما ان المراكز التجارية على هذه الطرق يسهل معرفتها لاضطرار الملاحة البحرية في الماضي الى اللجوء اليها والاستراحة فيها بعد عناء طويل طوال الابحار في خضم واسع لا قرار له ، ورغبة التجار في تبادل البضائع في مواقع محددة ثابتة وراءها برّ فسيح الارجاء . وان كان ثمة تغيير في مسار طريق الملاحة فهو جزئي تفرضه طبيعة الابحار في الماء والبحث عن طريق الامان وتجنب سبل المهالك .

واليونسكو وسعت دون ريب مفهوم الطرق البحرية وجعلت امتدادها من شواطىء الصين الشرقية الى شواطىء البحر المتوسط الشمالية والشرقية والجنوبية، وهذا يدخل في مجال بحار الملاحين العرب . كما ان جزءا كبيرا من هذه البحار ، أي بحر العرب وخلجانه وجانب من المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط ، كان في معظم الاوقات في قبضة العرب والمسلمين . وجعلت المنظمة معظم الموانى الشهيرة في بحر الصين الشرقي والجنوبي وشواطىء آسيا الجنوبية الغربية وشواطىء المحيط الهندي الجنوبية وسواحل افريقيا والبحر المتوسط مراكز مهمة على طرق الحرير البحرية . وفي هذا اعتراف واضح بالاسهامات القيمة لشعوب هذه البحار في الوصل بين الحضارات المتنوعة في بلاد العالم القديم في القارات الثلاث ، آسيا وافريقيا وأوربا، منذ زهاء ٣٠٠٠ عام . واختارت الامم المتحدة في غمار التطورات العالمية المعاصرة هدفا منشودا يبغي اعادة التفاهم السلمي بين الشعوب الذي كان العرب قد حملوا لواءه

خاصة في القرنين الثامن والتاسع بسفنهم التي جابت الافاق قبل أن يتعلم البرتغاليون صناعة السفن والملاحة في القرن السادس عشر ، كما يقول السيد فريدريكو ماجور المدير العام لليونسكو في نشرة Integral Study of the Silk Roads .

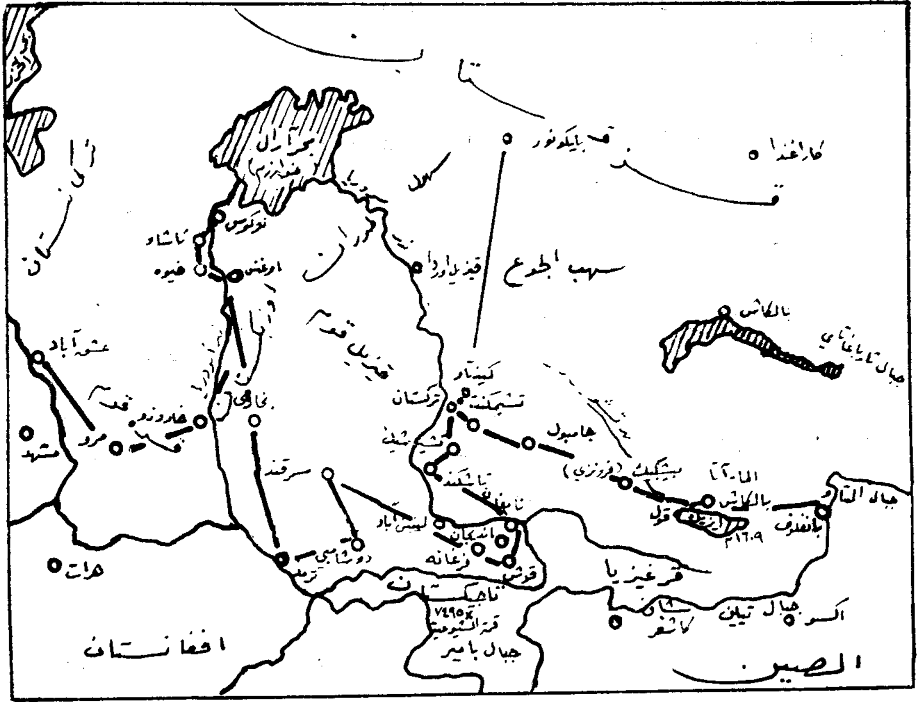
في تظاهرة اعلامية عالمية أبحرت سفينة « فلك السلام » العمانية تحمل مشتركي الرحلة البحرية لليونسكو طوال أربعة شهور من ما سمي ب « النافذة الغربية لطريق الحرير البحرية المفتوحة على الشرق » أي من البندقية ، مدينة البحار ماركو بولو (الذي يرتبط اسمه بطريق الحرير أيضا بسبب المعلومات التي أتى بها بحار أوربي عن هذا الطريق) لتمر بشواطيء خمس عشرة دولة أوروبية وآسيوية وتصل الى مدينة أوزاكا اليابانية ، أي ميناء نانيفا القديم الذي كان يبحر منه في القرن الثامن الرهبان اليابانيون الى الصين . وحملت هذه السفينة فريقا من العلماء والمصورين اجتمعوا وتناقشوا وبحثوا وصوروا وكتبوا ليعيدوا الى الاذهان أمجاد الطرق البحرية القيمة القديمة المندثرة .

٢ ـ بعثة طريق الحرير البرية ١٩٩١ :

أما الطرق البرية فهي من وجهة نظرنا نحن العرب ذات الاهمية الاكثر في تاريخنا لمرافقتها لاكثر المنجزات الثقافية العربية الاسلامية التي بدأت بالفتوح العربية الاولى ونشر الاسلام في بلاد آسيا الوسطى . وقد أسهمت حملة منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى ضمن مشروع « طريق الحرير ـ طريق الحوار » في القاء الضوء مرة أخرى على مكانة الطرق البرية والادوار التي كانت لها في الماضي ويمكن أن تسهم بها فيالحاضر والمستقبل ، في تقارب الشعوب وتمازج ثقافاتها .

كان عنوانالبعثة وكان لي شرف الاشتراك بها «دراسة ميدانية لطرق الحرير ـ طرق الحوار » . وهي رحلة استكشاف للطرق السهبية ومعالمها والمواقع الهامة والاثار المنتشرة فيها . وبدأ تنفيذ الرحلة في ١٩ نيسان انطلاقا من مدينة عشق آباد واختتمت في ١٧ حزيران ١٩٩١ في مدينة الما ـ آتا .

كان الوصول الىنقطة الانطلاق بالطائرة ونقطة الختام بالطائرة أيضا .وأما وسيلة الانتقال في بر آسيا من الحدود الجنوبية الغربية (للاتحاد السوفياتي) الى حدود الصين فكانت بوساطة رتل من السيارات الصغيرة والكبيرة وضع بعضها تحت تصرف البعثة مرسلا مع فريق من الاداريين من باريس تحت امرة السيد ديين منسق الرحلة (وهو في الاصل من دولة السنغال) والبعض الاخر من الجمهوريات في آسيا الوسطى، مع فريق من العلماء والاداريين من أكاديميات العلوم في تلك الجمهوريات بالاضافة الى وسائط نقل أخرى كالعربات الصحية وطائرات الهيلوكوبتر .



خط سير الرحلة

كان برنامج السير على النحو التالي :

- التجمع في مدينة عشق آباد عاصمة جمهورية تركمانستان يوم ١٩ نيسان لمدة ثلاثة أيام . ومن النشاطات هنا زيارة آثار مدينة نيسا القديمة والسوق التقليدية .
- زيارة مدينة ماري يوم ٢٢ نيسان لمدة ثلاثة أيام للاطلاع على آثارها ومعالمها الهامة وتنفيذ مهمات علمية ، والاطلاع على الفلوكلور الشعبي في المنطقة .
- زيارة مدينة شارجو في ٢٥ ـ ٢٦ نيسان والاطلاع على تنقيبات ريتجيك ، ورحلة الى منطقة هالاج Hallaj لمشاهدة العادات والتقاليد هناك .
- زيارة تاشاو على نهر أموداريا وكونور اورغينش يوم ٢٧ نيسان .
- السفر الى مدينة نوكوس في ٢٨ نيسان والبقاء فيها يومين وزيارة متحفها ، وبحر أرال وفردخار وطويروكالا .

ــ زيارة أورغينش خيوه من ٣٠ نيسان الى ٤ أيار . والاشتراك بالمؤتمر العلمي حول « أهمية محطات القوافل والمدن الواقعة على طريق الحرير الشمالي » . وزيارات لمتاحف خيوه ودراسة لطوبروكالا وبيرتكول وجانباسكالا وأكاديمية العلوم في أوزبكستان .

ــ زيارة مدينة بخارى ومتاحفها ومكتبتها ومدارسها القديمة وقلعتها في ٤ أيار .

ــ زيارة غارشي في ٨ أيار وحضور بعض النشاطات الفنية المسرحية .

ــ ٩ أيار السفر الى مدينة ترمذ والاطلاع على معالمها .

ــ ١٠ ــ ١٣ أيار زيارة الى دوشامبي والاطلاع على معالمها ومتاحفها ومسرحها ،وزيارة وادي كارسوب على الطريق الى مدينة سمرقند .

ــ زيارة سمرقند بين ١٤ ــ ١٧ أيار والتجول في معالمها التاريخية الهامة وخاصة المدينة القديمة أفراسياب والابنية التاريخية التي رعاها تيمورلنك مثل الجوامع والمدارس والترب بالاضافة الى المرصد الفلكي فيها .

ــ ١٨ ــ ١٩ أيار زيارة لمدينة لينين آباد .

ــ ٢٠ ــ ٢٢ زيارة مدينة أوش .

ــ ٢٣ ــ ٢٤ أيار زيارة وادي فرغانا ومدينة ناماغان .

ــ السفر الى مدينة تاشكند في ٢٥ أيار والبقاء فيها حتى ٢٨ ، ولقاء في معهد الدراسات الشرقية والتاريخ ورحلة الى بحيرة تاشكند ، ولقاء مع اذاعة تاشكند

ــ ٢٩ ــ ٣٠ أيار رحلة الى تركستان لمدة يومين .

ــ ٣١ أيار زيارة مدينة شيمكنت والاطلاع على مدينة أترار القديمة التي خربها وحرقها جنكيز خان .

ــ زيارة مدينة جامبول في ١ حزيران في منطقة الانهار السبعة التي تعرضت للدمار والتخريب في القرن الثالث عشر . وزيارة وادي طلس الادنى في منطقة الشعوب الساردية القديمة . وزارة كوس توبي التترية القديمة وجامكيت بالاس وعدد من التلال الاثرية في دلتا نهر سرداريا (سيحون) وزيارة مدرسة سباق الخيل ومضارب خيام اليورتا ومقام زبداي .

ــ ٢ ــ ٤ حزيران السفر الى مدينة فرونزي عاصمة جمهورية قرغيزيا (الان بيشكيك وهو الاسم القديم لها) .

ــ ٥ حزيران السفر الى وادي تشو في سفوح جبال تيين شين وأرض القازاخانية والقرغيز في موقع العاصمة القديمة بلاساغون في موقع بورنا حيث توجد مكتشفات اسلامية كثيرة ومقابر كتبت شواهدها بالعربية . وخاصة زيارة الاقلية الصينية في مدينة دونغان .

ــ ٥ ــ ٧ حزيران زيارة عدد من مواقع الاثار في منطقة القرغيز وخاصة في بادوك وحضور مهرجان الفروسية ، والاطلاع على معالم شولبون آتا والمواقع الاثرية التي تعود الى العصور الحجرية على مقربة من بحيرة ايسكول ، ورحلة في السفينة في البحيرة .

ــ ٨ ــ ١٢ حزيران زيارة مدينة بانفلوف والمسجد الصيني فيها والاطلاع على معالم المنطقة قرب الحدود الصينية ، والمرور عبر ممر كيشين باتجاه مدينة الما ــ آتا .

ــ ١٣ ــ ١٧ حزيران السفر الى مدينة الما ــ آتا عاصمة جمهورية قزقستان والبقاء فيها حتى ١٦ حزيران والاشتراك بعدد من النشاطات ومنها زيارة الاكاديمية والمتاحف وعقد مؤتمر صحفي وانعقاد المؤتمر العلمي الثاني بعنوان « العلاقات بين الثقافات الحضرية والثقافات الحضرية والثقافات البدوية على طريق الحرير » ثم وضع التوصيات بعد مناقشة النتائج التي توصل اليها المشتركون ببعثة « طريق الحرير ــ طريق الحوار » .

عناوين الموضوعات العلمية التي نوقشت في الندوات العلمية خلال بعثة طرق الحرير البحرية ١٩٩٠

ــ في البندقية بايطاليا (١٣ ــ ١٩٩٠/١٠/٢٣) : أدب الرحلات ، نشأته ودوره .

ــ أثينا باليونان (٢٥ ــ ١٠/٢٨) التطورات الثقافية والتجارية بين المشرق والعالم اليوناني .

ــ كوزاداسي بتركيا (٢٩ ــ ١٠/٣١) : آثار طريق الحرير في الثقافة التركية والفن التركي .

ــ في الاسكندرية والقاهرة والسويس بمصر (٢ ــ ١١/٧) التطورات الثقافية بين مصر والبلاد الاخرى على طريق الحرير خلال الفترة الاسلامية .

ــ في سلالة ومسقط في عمان (١٣ ــ ١١/٢٥) : أهمية التراث العماني في طرق الحرير .

ــ في كراتشي في باكستان (١١/٢٧ ــ ١٢/٣) السند والملاحة العربية ــ الثقافة والتجارة والعمران .

- في مورموغاو وغوا في الهند (٥ ـ ١٢/٩) : اللقاءات البحرية بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر .
- في كولومبو في سيريلانكا (١١ ـ ١٢/١٧) : سيريلانكا كمركز متوسط على طرق الحرير بين الشرق والغرب وكمركز تلاقي ونقل للفلسفة البوذية .
- مدراس في الهند (١٩ ـ ١٢/٢٤) الهند والعالم الروماني بين القرنين الاول والرابع الميلاديين ـ الصلات الثقافية الهندية بين القرنين الرابع والثالث عشر .
- بورت كيلانغ ومالاقا في ماليزيا (١٩٩٠/١٢/٢٨ ـ ١٩٩١/١/٦) : التقاليد البحرية الماليزية .
- سورابايا في أندونيسيا (٩ ـ ١/١٤) : المدن والموانىء على طرق الحرير .
- بانكوك في تايلاند (١٨ ـ ١/٢٣) التجارة القديمة والصلات الثقافية في جنوب شرق آسيا .
- بروناي (٢٧ ـ ١/٣١) : تأثير الطرق البحرية على ثقافة بروناي .
- مانيلا في الفلبين (٢/٣ ـ ٢/٧) : مانيلا البندقية الثانية .
- هوانغبو وغوانغز هو (كانتون) في الصين (٩ ـ ٢/١٩) الصين وطريق الحرير البحرية .
- بوزان يونكجو في كوريا (٢٢ ـ ٢/٢٦) الثقافة الكورية وطرق الحرير .
- هاكاتا أوزاكانبارا في اليابان (٢٧ ـ ٣/٩) : طرق الحرير والفن . بيت الخزينة اليابانية في نارا ـ نقل القيشاني على طرق الحرير .

لائحة الموضوعات العلمية التي نوقشت بين ١٥ ـ ١٦ حزيران ١٩٩١ حول العلاقات بين الشعوب الرعوية والمستقرين على طرق الحرير

اشترك في الندوة العلمية تحت هذا العنوان معظم العلماء في بعثة طريق الحرير ١٩٩١ ويمكن تلخيصها بما يلي :

* العلاقات التاريخية بين الصينيين المستقرين والرعاة في الشمال * أعمال استكشاف في قزقستان ونموذج من العلاقة بين الحضارة الرعوية وحضارة المستقرين * المدن والارياف في بلاد الرافدين * طريق الحرير العظيم والوضع الاتنوغرافي والانتربولوجي في أوراسيا * الازدهار في فترة كوشان وطريق الحرير * التشابه في الوظيفة والمخطط بين المنازل البدوية والمنازل الحضرية في الشرق الادنى الغربي * العلاقات بين الحضارة الرعوية والحضارات المستقرة في طريق الحرير * تقنية من

البادية والمدينة * المغول القدماء وعلاقاتهم بالشعوب المجاورة * الرعاة في منطقة آرال والخزر * آسيا الوسطى والعناصر الحضارية في الشرق الاقصى في منطقة كوريا القديمة * المجتمع الرعوي كحضارة قائمة بذاتها * الموسيقى الكورية وعلاقتها بالمسيقى الاسيوية * المدن كمنظومة واصلة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات البدوية *

ملخص بالتوصيات النهائية التي وافق عليها أعضاء وفود بعثة « طريق الحرير ـ طريق االحوار » في مؤتمر ألما ـ آتا في ١٦ حزيران ١٩٩١

* العمل على تنظيم وتمويل زيارات للدارسين من الدول الفقيرة بمعرفة لجنة طريق الحرير لحضور المؤتمرات العلمية وزيارة المكتبات والمتاحف والاشتراك بجميع نشاطات طريق الحرير .

* نشر عدد من الكتب وتنظيم حلقات دراسة وندوات وفق برنامج لجنة اليونسكو لطريق الحرير والاحتفال بالشخصيات البارزة التي يرتبط اسمها بطريق الحرير .

* أستخدام التقنية الحديثة المتوافرة لدى اليونسكو وخاصة فيما يتعلق بوسائل الاتصال عن طريق الاقمار الصناعية وبنك المعلومات واشراك موسكو ولينغراد والجمهوريات السوفيتية بها ووضع لوائح بالكتب والنشرات والدارسين والطلاب والمنظمات التي لها علاقة بطريق الحرير .

* القيام بعمليات ترميم وحماية بوساطة لجنة خبراء بالتعاون مع جمهوريات آسيا الوسطى واستعمال كل ما يتيسر من الخبرات التقنية .

* ترحب اللجنة بمساعي الجمهوريات في الكشف عن آثارها وتحض على التوسع في دراسة التصحر في منطقة بحر آرال ونشر المعلومات عنه بالتعاون مع الاونيب.

* وضع خريطة معدلة لطريق الحرير وأدراجها في برنامج أطلس اليونسكو .

* نشر ما يتعلق بطريق الحرير وبرنامجه من خلال السينما والتلفزيون والاذاعة والمقالات في المجلات والبرامج الثقافية والرحلات .

* العمل على افتتاح مركز أو مراكز للبحث العلمي يختار مكانه أو أماكنها في جمهوريات آسيا الوسطى وبمساعدة اليونسكو .

* الدعوة لاسهام اليونسكو في الدراسات الاتنوغرافية والدينية واللغوية والفولكلورية وتقنية الصناعات التقليدية المعدنية والزجاجية والقيشاني .

* الفريق الدولي يحث اليونسكو والامم المتحدة علـى دعوة السلطات الافغانيـة والعراقية على حماية ثرواتهما الاثرية والفنية .
* وجوب ضم الجانب الغربي لطرق الحرير الى برنامج نشاطات اليونسكو المتعلقة « بطريق الحرير ـ طريق السهب » .
* العمل على حماية ودراسة وترميم زهـاء ثلاثين موقعا أثريـا في جمهوريـات تركمانيا وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزيا وقزقستان بالتعاون مع حكومات هذه الجمهوريـات .

وتجدر الاشارة الى الاقتراح الذي تقدم به الى منظمة اليونسكو موفد القطـر العربي السوري الى بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ » وبعد التشاور مـع بعض موفدي الاقطـار الاسـلامية الصديقة ، المتضمن دعـوة الـى ايـلاء القطـر العربي السوري أهمية خاصة في نشاطات طريق الحريـر بالاضافة الى أفغانسـتان وايران والعراق وتركيا ، وهذا نصه :

لقد نجحت بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » في تحقيق معظـم الاهداف التي نظمت الرحلة من أجلها ويسرني أن أقترح عليكم التفضل بدراسة امكانية اعطـاء عنايتكم لاحد الجوانب الاخرى التي لها ارتباط وثيق بطريق الحريـر ، وأعني بذلك الاهتمام بالجوانب الفكرية والعلمية التي حمل شعلتها في الماضي رواد مـن العلماء المسلمين في الدول التي مرت بها طريق الحرير كانت لهم الصفة الدولية فارتفعوا عـن قيود الحدود القطرية وأسهموا في حضارات قيمة اشتركت جميعا في ثقافة اسلامية امتزجت بالثقافات الاخرى وأسهمت في خلق جو من التعاون الثقافي والعلمي بين جمع الامم الاخرى بغض النظر عن اختلاف الاديان والاجناس .

وتحقيقا لذلك يمكن للمنظمة الدولية اليونسكو الدعوة الى مؤتمر يمكن أن يعقد مرة واحدة أو أكثر خلال الاعوام الثلاثة القادمة في احدى الدول التي ازدهرت فيهـا الثقافات المذكورة مثل سورية أو افغانستان أو ايران . وتكون من بين الموضوعات الرئيسة فيه تسليط الضوء على عالم من علماء المسلمين الذين نشطوا على طريـق الحرير ويمكن أن يكون التركيز مثلا على الفارابي أو الخوارزمي أو غيرهما .



المصادر والمراجـع :

ـ زيارات ميدانية لمواقع جغرافية وتاريخية وأثرية في جمهوريات اسيا الوسطى .

ـ نشرات متعددة أصدرتها اليونسكو حول طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ وطريق الحرير البرية١٩٩١.

ـ محاضر الندوات المرافقة لبعثة طريق الحرير ١٩٩١ ، ولقاءات علمية مع العلماء المشتركين فيبعثة طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ .

ـ الموسوعة البريطانية والموسوعة الالمانية وغيرها .

ساطع محلي ، مخطوط يعد للطبع بعنوان طريق الحرير ١٩٩١ .

« محلي ، امريكا اللاتينية ١٩٨٠ .

« محلي ، افريقيا جنوبي الصحراء ١٩٨٢ .

« محلي وعبد الرحمن حميدة ، دليل العالم ـ أرقام ووقائع .

« محلي ، النقل والمواصـلات ١٩٩٠ .

عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ١٩٨٤ .

كلاوس ديثمان ، السودان ، المجلة الجغرافية ١٩٨٣ .

غازي طليمات ، من أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم لمحمد بن احمد المقدسي ـ المختار من التراث العربي ١٣، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ .

أحمد رمضان ، الرحالة المسلمون ، دار البيان العربي .

مجموعة من المؤلفين ، أطلس التاريخ الاسلامي جامعة برستون ١٩٥٤ ، ترجمة وتحقيق ابراهيم زكي خورشيد .

Franz, H. G,. Herausg. Die Seidenstrasse . Akademisch, Druck - U. Verlag . Graz 1987.

Hallbach, Uwe . Materielle Krise. Islam u. Nation in Sowietisch . Viertalgahres Beruhte, Sept. 1991 . Hevausg . Friedrich - Ebeot - Zentralosien. Stiftung .

Uhlig, Helmut. Die Seidenot rasse , Baskei Luebbé 1990.

